تحقيق

واحة آمنة في محيط مستباح

أُلغيَ نظام التصاريح المعمول به منذ خمس سنوات على الحواجز القائمة على مداخل مخيم البارد، وذلك ضمن سياق يأمل الأهالي أن يفضي إلى إنهاء الحالة العسكرية، وبالتالي تنشيط الحركة التجارية في المخيم. علماً بأن أشياء عديدة تشير إلى صعوبة عودة الروح

في منتصف تموز الماضي، أُلغيت التصاريح إثر إشكالات حدثت بين الجيش وسكان المخيم (الأخبار)

البارد ــ **روبير عبد الله**

شهر رمضان، الجيش اللبناني، عكار، مخيم نهر البارد. مشهد تتداخل مفرداته، تتشابك وتتنافر في مربع لا تتعدى أضلاعه عشرات الأمتار. يشتد التنافر في مركز المربع عند النصب التذكاري لشهداء الجيش الذي رفع بعيد انتهاء المعارك بين الجيش وفتح الإسلام في المخيم.

قبل النصب باتجاه عكار، يحاول الجيش استعادة هيبة مهتزة. هناك يعيش الناس حرية تلامس الفوضى نتيجة «انتفاضة» على الجيش، قوامها تضامن مع الشعب السوري، انحرف مستواه ليأخذ أبعاداً، أُخضعت ـ أو تكاد ـ تحركاته لإملاءات الطائفة والمذهب. وبالاتجاه المعاكس يؤكد الجيش في المخيم هيبة مستباحة في الأمكنة الأخرى.

كان سوق مخيم البارد ملجأً لفقراء عكار، يأتون إليه للتزود بحاجاتهم «من البابوج إلى الطربوش». وكان لا بد أن يعلق في ذهن عابر المخيم شعار تقدمي ووطني. أقفل المخيم على نفسه بمحاصرة شريانه الحيوي. وبعد طول غياب لأي شعار فلسطيني، كان بائساً منظر لافتة خرج بها أبناء المخيم إلى أوتوستراد العبدة ــ المنية باسم منتدى مخيمي البارد والبداوي الحواري لتهنئة «أهلنا في مخيم نهر البارد والجوار بإلغاء نظام التصاريح رسمياً في المخيم» ويدعون فيها «أهلنا في الجوار اللبناني إلى زيارة محال المخيم التجارية في هذا الشهر الفضيل».

قبل النصب باتجاه عكار تعجّ الدكاكين بالزبائن، يستهلكون في شهر رمضان ما لا يفعلونه على مدار عام كامل. وبالمقابل، يبدو الشارع الرئيسي في المخيم الجديد مدينة أشباح. قسم من المحال التجارية لا يزال مقفلاً، والقسم الآخر يظهر أمام كل دكان صاحبه مستلقياً على كرسيِّه بين النوم واليقظة.

على مدخل المخيم، يقول لي الجندي على الحاجز الأول: «شكلك معصب». أجيبه: «بالعكس تماماً، لكن أشعة الشمس الآتية من صوبك جعلتني أقطب وجهي لا أكثر». ثم يدردش الجندي قليلاً بانتظار حلول دوري للتقدم نحو حاجز التفتيش التالي، فيقول ممازحاً: «نظراتك مبينة مش قانونية»، قلت له: «بالعكس تماماً»، وأحسب بعض الصدق في ذلك؛ لأن الأشهر القليلة الماضية دفعت ابن الشمال إلى تحسس مخاطر جنون الشارع والتراجع المرعب لحضور الدولة. هكذا بعد التدقيق بالنظرات، يأذن الجندي بالتوجه نحو حاجز التفتيش. ومثل العادة، المطلوب إبراز الهوية ودفتر السيارة، ثم فتح الصندوق، وفتح أي شيء في داخله، كيساً كان أو محفظة، أو أي وعاء مقفل.

إلى محالّ القناعة. اسم على مسمى. قبل تدمير المخيم، كانت قيمة البضاعة في المتجر الذي يملكه عبد المجيد أسمر وأشقاؤه تبلغ ثلاثمئة ألف دولار وأكثر. أما لدى العودة، فالبضاعة لا تتعدى قيمتها تسعة آلاف دولار. ممدداً على كرسيه، قفز عبد المجيد لدى توقف السيارة وركنها إلى جانب المحل. حدث نفسه: «جاءت الرزقة»، تبدد الأمل، فالزيارة للسؤال عن أحوال البيع والتجارة. وكمن تعب من كثرة كلام لا يغني ولا يُسمن، أشار عبد المجيد إلى لوحة علّقها في صدر المحل، عليها صور متسلسلة، تحتوي أولاها منظر محله عندما كان مليئاً بالبضاعة ويعج بالزبائن، ثم منظر كامل البناء بعد أن تحول إلى ركام، يليه مشهد الجرافات تنظف المكان، إلا من بقايا بضاعة، ولو محترقة (سرقت قبل أن يدمر البناء)، وانتهاءً ببناء جديد لا يشبه سابقه.

يترك عماد عبد العال استوديو التصوير الذي يملكه، ويأتي ليشارك في المقابلة. الشغل واحد بالمية، و«نحن نعيش في غوانتانامو لبنان»، فأي زبون سيتجاوز المعابر والدشم والحواجز لكي يتسوق في المخيم المصون بالأسلاك الشائكة؟ المخيم من الناحية العملية «أوتيل» ينام فيه سكانه، ويذهبون للعمل خارجه.

هناك إصرار على تعريض سوق المخيم لإجراءات غير مطبقة في المناطق اللبنانية

في منتصف تموز الماضي، أُلغي نظام التصاريح إثر إشكالات حدثت بين الجيش اللبناني وسكان المخيم. وتبع إلغاء التصاريح خطوات أخرى باتجاه تخفيف المعاناة الفلسطينية. لكن تلك الخطوات، قياساً إلى الوضع الذي ساد المخيم مدة خمس سنوات، لا تبدد القلق؛ فتاجر مواد البناء قاسم كنعان، لا يزال يحتفظ بتصريحه؛ فـ«أخشى أن يطلبوه من جديد. وبالأصل ـ يضيف كنعان ـ كل شيء يشير إلى أنه مطلوب إشغال أبناء المخيم بهمومهم اليومية، ولا يوجد من يحسب لوجودنا حساباً». تاجر مواد البناء يبيع من وقت إلى آخر «دنبر بودرة» أو طن ترابة، أما المواد اللازمة لإعادة إعمار المخيم فتتوافر عبر شركات كبرى. وعلى سيرة الشركات الكبرى، ينتفض كنعان متذكراً يوم كان لديه شاحنات توزع مواد البناء إلى كل جوار المخيم، وصولاً حتى الحدود السورية، ويستطرد بالقول إن الشركات التي تلتزم توفير المواد للطرقات العامة وغيرها، غنمت على حساب المخيم، من خلال تنصلها من دفع الديون، لأنه علاوة على سرقة البضاعة وتخريب الشاحنات، فقد أتلفت الدفاتر والإيصالات، وقلة قليلة من المدينين التزموا الوفاء بالمستحقات المستحقة عليهم.

مخيم البارد لا يحتوي سوقاً تجارياً عادياً. فالقطاع التجاري في المخيم يضم ألفاً وأربعمئة وخمسين تاجراً، يتوزعون على ثلاث فئات. فئة كبار التجار الذين تفوق رساميلهم خمسين ألف دولار، وقد تصل إلى قرابة مليون دولار. وفئة الوسط الذين تراوح رساميلهم بين عشرة آلاف وخمسين ألف دولار. ودونهم فئة صغار التجار. يقول عضو لجنة تجار نهر البارد أحمد ناصر، إن المخيم لم يكن مركزاً تجارياً لشمال لبنان فحسب، بل كان أيضاً على مستوى لبنان كله. وخلال لحظات ـ يضيف ناصر ـ اختفى كل شيء، وكأن شيئاً لم يكن. لا لجنة تحقيق ولا من يحزنون، ضاعت المسؤوليات بين الدولة اللبنانية والأونروا واللجان والدول المانحة. والهبات التي تسلمها كامل القطاع التجاري بلغت مليوناً ومئتي ألف دولار. وإذا كانت معظم الديون المستحقة لمصلحة تجار المخيم، أصبحت ديوناً هالكة، فإن المستحقات المترتبة عليهم للشركات ظلت مستمرة. والأسوأ من ذلك، يصف ناصر حادثة خاصة به، بقوله إن محضر مخالفة بناء حُرّر بحقه قبيل تدمير المخيم بقيمة مليون ونصف مليون ليرة، اضطر إلى دفعه بعد «الحرب»، رغم أنه قدم إفادة من المختار مع صور تثبت أن البناء مدمر بالكامل.

لا يأمل عضو لجنة التجار استعادة زخم السوق التجاري في المخيم، فخمس سنوات من غياب سوق البارد كانت كافية لإيجاد بدائل لدى الزبائن، وخصوصاً في عكار التي شهدت أسواقها المحلية توسعاً مذهلاً في الآونة الأخيرة. وإلى ذلك، ثمة عامل نفسي، هو اليأس والخوف السائدان في عقل التاجر الفلسطيني الذي إن لم يعرف الأسباب الحقيقية التي تقف خلف ما جرى في المخيم، فهو يدرك أن النتيجة كانت إضعاف الوجود الفلسطيني وإضعاف موقع البارد الاقتصادي. فهل تكون النتيجة هي الهدف؟

وعلى أوتوستراد المنية ـ العبدة، لا يأمل شحادة الخطيب، صاحب إحدى المؤسسات التجارية الكبرى، الفوز بثمرة عيد رمضان التجارية،

صدى الزواريب

المصيــــدة*

مظاهرات يوم النكسة في مجدل شمس (رويترز)

الجولان المحتل ــ **كميل خاطر**

قناص يصطاد على المصيدة أشياء تشبه الأجساد. تطلق آهات وتُكبّر. يسقط شيء شهيداً، شيء لم يكن مسلحاً. صدى وشوشة متسلط يملك الدعاية والمال، قال: من هنا فلسطين، ومن هنا الجولان. ومنذ 45 عاماً لم يقل كذلك. شيء يؤمن بالحرية، وأحياناً يملك راية ترمز إلى كل أولئك الذين سقطوا منذ عقود.

أراد أن يتناول الشيء وجبة الغداء، وكأنه يأكل مثلنا، كأنه إنسان، لكن لربما هذا الشيء ليس إنساناً، أو لربما أنا لست بإنسان. لربما كنت في حلم، أو أشاهد أفلاماً تتجاوز آفاق خيالي. سألت الشيء فأجابني بأنه فيلم من صناعة اللحظة، وعندما سألته عما يستغل اللحظة، سقطت دمعة من وجدانه. تأوه، ثم صرخت ذاكرته من شعارات كانت، وحدق مرتين، مرة باتجاه القناصين المشرفين على المصيدة، وأخرى إلى حيث تخمنون الآن.

أراد أن يتناول وجبة الغداء. بحث عن مفتاح ليفتح معلبات الطغاة والساديين، وبحث عن سكين مطبخ، فوجد حجرين. تناول طعامه مغمساً بالظلم والدم.

أما أنا فبكيت، ومن ثم بكيت.

ركب الشيء تابوتاً. زغردت حارات المكان، وتملق فرسان الأخبار، ووضعوا مالاً في صندوق يملأه الحرام، ويتكدس به بدل أسماء رحلت. أحقاً رحلت؟

ركب تابوتاً، وحين وصل عائداً إلى حيث انطلق ورفاقه باكراً لم يجد الوجوه التي استأجرت لهم الحافلات، وما رآها حين وقف على المصيدة. كانوا يلهون في مدينة قريبة من المخيم. نظرت إليه مرة أخرى، فقال: إنهم ماتوا في ضميرنا وفي التاريخ.

التفت إلى عيون أمهات رفاقه فعرف أن رفاقه يلازمونه اللحظة كما لازموه باكراً. عرف أنه ورفاقه يكتبون بدمائهم الفصل الأخير من كذبة اللاحرب واللاسلم. عرف أنهم رموا سهام الكرامة نحو مصالح هذا النظام وتلك السلطة. كنت أشاهده حينها، وحين سقط رأيته. وتراهنّا أنا وصديقي